

الجسارة اللغوية لدى الشعراء الجزائريين.البشير الإبراهيمي أنموذجا

Audacity towards the language at Poets Algerians– El Bashir el Ibrahim An example–

بوزيان حمزة

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة.الجزائر

كلية الآداب والفنون.مخبر لسانيات وتحليل الخطاب

El Bashir el Ibrahim is known as one of the leaders of the words school this specific school gives too much attention and importance to the selection of the best words and expressions, in fact this is the secret that offers the writing style the beauty of words also the strength of meaning. .. This is what we find it in El Bashir el Ibrahim way of writing and express in ideas. Our aim is not to deal with the characteristics of El Ibrahim style but to shed light on his audacity towards the language, on the use of the French words also informal expressions. Among is works, that include the presence of the linguistic audacity, we have a poem entitled Riwayat Atalata... so what is the cause of that rebellion?

Keywords: audacity towards the language, culture, slang, the poetic poem Riwayat atalata.

الملخص

عُرف البشير الإبراهيمي ما بين القراء على أنه أحد رُؤاد مدرسة الصنعة اللفظية، هذه المدرسة التي تهتم باجتهاد وانتقاء أجود الألفاظ وأليقها مما يجعل أسلوب الكتابة يتسم برصانة الألفاظ التي تجعله قويا متسعا مثلما عهدناه عند الشيخ البشير الإبراهيمي.

وليس خطبنا في هذا البحث إبراز خصائص أسلوب الشيخ التي تثبت تألقه في لغته الزاكية فهذا لا يُنكره إلا سفيه، وإنما غرضنا أن نستوضح جسارته اللغوية وتجروءه عليها، كاستعماله كلمات فرنسية ومفردات عامية سوقية.

ومن كتاباته التي نجد فيها هذه الجسارة اللغوية، أرجوزته المَعْتونة برواية الثلاثة، فما سبب هذا التمرد وهذه الجسارة

اللغوية؟

كلمات مفتاحية: الجسارة اللغوية، الثقافة، البشير الإبراهيمي، أرجوزة رواية الثلاثة.

العرض:

1. مقدّمة:

يعدّ البشير الإبراهيمي ريحانة تاريخ الشعب الجزائري الأزهر، وعصارة الأعلام والشعراء الأفاضل البارزين الذين كان لهم الفضل الكبير في وضع أحداث نقطة تحوّل في الخطاب الشعري والنثري، ولعلّ سبب ذلك لأنّه تشبّع بالثقافة العربية الإسلامية النابعة من القرآن والسنة النبوية واللغة العربية.

ولقد وصفه عبد الرحمن شيبان أنّه كان إماما في العربية وبلاغتها، بسرّ بأسرارها، وتغذى بأدابها واستنار بقرآنها، وكان خطيبا ذليفاً، أمّا أسلوبه في الكتابة فشبهه بالجاحظ، ممّا جعله معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين¹، وممّا ميّزه عن غيره أنّه جمّع ما بين الجانب الديني والوطني، فبالرغم من أنّه كرّس حياته وكفاحه ونضاله ووطنيته من أجل وطنه إلا أنّه أكبر جهابذة اللغة.

وإنّ الحديث عن البشير الإبراهيمي في أرجوزته رواية الثلاثة يعني الحديث عن ثقافة وعادات وتقاليد المجتمع الجزائري من ناحية، ومن ناحية أخرى هو الحديث عمّا يسمّى بالجسارة اللغوية كاستعمال التعدّد اللغوي أو العامية في هذه الأرجوزة.

وإنّ عبارة التعدّد اللغوي لتومئ بأنّ المتكلّم يتحدّث بأكثر من لغتين²، أو إن شئت قلّ يُوظّف في كتاباته لغتين فأكثر، وليس من قبيل المصادفة أن تحظى توظيف لغتين أو العامية بمقدار أكبر في مسرحية رواية الثلاثة، فما الدافع وراء هذا التعدّد اللغوي، وما سمّياه بالجسارة اللغوية؟

2 موضوع الأرجوزة: نالت أرجوزة رواية الثلاثة حظوة كبيرة لدى الباحثين، بسبب ما تحمله من قضايا موضوعاتية تعكس ثقافة وتقاليدا كانت راسخة في المجتمع الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ما تُصوّره من عُين وإملاقٍ وتعرّسٍ عاشه بل وتجنّسه الشعب الجزائري قبل اندلاع الثورة.

ولقد ذكر عبد الملك مرتاض أنّ الإبراهيمي قد وُفق في هذه الأرجوزة إلى حدّ كبير في تصوير البأس البائس، الذي كان معلّما العربية يكابدونه في الجزائر، وممّا يعضّد قول عبد الملك مرتاض البيت الشعري التّالي الذي يصوّر البؤس والإملاق الذي عايشه المعلّمون في قول الشّيخ:

أذهب بها صدقة للطّلبة فالفقّر فيهم علم بالغلبة

ففي هذا البيت يقول الإبراهيمي على لسان أحد الأبطال، وقد أراد أن يرسل بفطائر يابسة أتى عليها كُرّ الأيام، إلى المعلّمين الثلاثة الجائعين البائسون³، فالذي يبدو لنا أنّ الإبراهيمي اعتمد تصويرا فنياً أضفى جمالية على عمله الأدبي يُظهر من خلاله مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية بالجزائر قبل الثورة والمتمثّل في الإملاق والتعرّس.

أما موضوعها فهي تتحدّث عن ثلاث شخصيات حقيقية وهم أساتذة، ذكر أسماءهم الإبراهيمي في مقدّمة رواية الثلاثة وهم السعيد بن حافظ مدير مؤسسة التربية والتعليم، وعبد الحفيظ الجنّان ومحمّد بن العابد الجّلاّلي، وهما معلّمين بتلك المدرسة، إذ يحاول هؤلاء الثلاثة أن يرسلوا شيخهم الذي كان بالمنفى، ولكن يختلفون فيمن يدفع ثمن الطابع البريدي فكّلهم بخلاء، وليست هذه الصفة هي الوحيدة التي امتاز بها هؤلاء الأساتذة، وإنّما ذكر الإبراهيمي سمات أخرى فيهم كالفاقة والذلّ والعادات السيئة، كلّ ذلك يبرهن الاضطهاد والغبن الذي عاشه الشعب الجزائري عامّة والمُتَنَفّ خاصة. ولقد ذكر عبد الله حمادي في مقالٍ يتناول مسرحية رواية الثلاثة أنّ موضوع الأرجوزة يُوضّح جنسية الجزائري، ونسبهم، وأصلهم، ونشأتهم، والمسرحية محتواها حقيقي وإن بدت لنا أنّها هزلية، وقراءتها تجعل المتلقّي يطوف في قصّة لا يملّ منها⁴.

فالبشير الإبراهيمي سار من خلال هذه الأرجوزة على خطى العرب من أهمية الشعر في الإبانة عن قضايا المجتمع، وفي هذا الصدد يقول شيخنا عبد القاهر الجرجاني عن الشعر أنّ فيه الحقّ والصدق وفصل الخطاب، وقد أفاد الناس بالأمور الجليلة، وترسّل بين الماضي والآفل، ينقل محامد الأخلاق الماضيين، وينقذ ودائع السموّ والسؤدد عن الراحل إلى الموجود، حتّى ترى به آثار الماضين مُخلّدة في الباقيين...⁵.

3. الجسارة اللّغوية في رواية الثلاثة:

إنّ المتأمّل لرواية الثلاثة يجد نفسه أمام قيّم نفيسة حملتها هذه الأرجوزة، وإن بدا له فيها وجود زخم كبير من العاميّة واللغة الفرنسية إلّا أنّ هذا لا يُقلّل من استقطاب المتلقّي وجلب النقّاد، ولعلّ سبب تلك الاستعمالات هو كون الشيخ أراد أن ينقل لنا الحوادث كما وقعت من دون تغيير حتّى يعيش القارئ واقع الحياة تحت وطأة المحتلّ من جهة، ويعيش هذا القارئ المشهد فيؤثّر في مشاعره وينطبع في ذهنه من جهة أخرى، فمثلا تستوقفنا بعض الأبيات الشعرية يفوح أريجها من خلال كلمات عامية زادت الكلام رونقا ورؤاء، وذلك لما استدعى المدير السعيد بن حافظ المعلّمين بُغية الحضور إلى اجتماع طارئ في يوم مُعيّن، وفي ذلك يقول:

فِي يَوْمٍ تَسْعُ مِنْ شُبَاطِ الْمَاضِي لِأَنَّنِي أَكُونُ فِيهِ فَاضِي

وَبِسْمِلًا وَكَبْرًا وَحَوْقِلًا وَالتَّزِمَا الصَّمْتِ وَلَا تُشَقِّلِلَا⁶

فكلمة فاضي يقصد بها صاحبها أنّه لن يكون له أيّ شغل وسيكون قد انتهى من أعماله، أمّا كلمة تُشَقِّلِلَا فهي كلمة تُستعمل في العامية بمعنى كثرة الكلام والمبالغة فيه من دون فائدة، أمّا كلمات بَسْمِلًا وَكَبْرًا وَحَوْقِلًا فهي من باب الإيجاز فقط لا نزولا بالفصحى إلى العامية، فالعرب تختصر الكثير من الجمل المتداولة إذا أصبحت بديهية لدى الناس، فمثلا بسملة نقصد بها بسم الله الرحمن الرحيم وهلمّ جر.

وأوردَ عبد الملك مرتاض أنّ الشيخ لم يكن يصطنع العامية والعبارات الأجنبية، عن ضحالة في اللغة، ولا قصور في تدبيح فنّ القول، وإنّما كان يأتي ذلك تملّحًا وتحمّضًا، كما في قوله على لسانيّ المدير والجنّان:

لَتَتَّقُوا مَسَبَّةً وَ (بِهَذَلَةٍ) قَدْ جَالَتْ

الْجَنَانُ: أَنَا أَفْضَلُ الشَّقَلَّةِ⁷.

أي أَنَّ محاولة الشيخ البشير الإبراهيمي من توظيف العامية والعبارات الأجنبية التي كانت بعيدة عن الركافة والابتذال بما يناسب القارئ طبعاً كان بغية تزيين أحداث الرواية، وهذا ما أضفى عليها تملّحاً وتحمّضاً حتّى يستحسنها القارئ الذي يُعدُّ الزّهبان الموجّه لسفينة الكاتب.

ومن ضمن ما نَفَت انتباهنا في الأرجوزة كلمات لا تُستعمل إلا عند فئة من الجزائريين، من ذلك ما ردّ به الجنان على المدير بغضب بسبب الحكم:

وَكُلُّ حَالٍ لِلْمَالِ يَرْمُزُ فَأَنْظُرُ فَأَنْتَ الْقَاعِدُ الْمُقْمَعَرُ⁸

فنرى أَنَّ مفردة الْمُقْمَعَر لا تُستعمل كثيراً في لهجة الجزائريين إلا عند أهل الشرق، ويقصد بها عادة الجلوس بشبك الأرجل، أمّا في قوله:

وَإِنْ عَفَوْتَ فَاطْلُبِ الدُّومَاجَا وَضَمِّنِ الْخُبْزَةَ وَالْفُرْمَاجَا⁹

فإنّ كلمة الدوماجا تسعمل في اللّغة الفرنسية معناها الخسارة، أمّا الفرماجا فمعناها الجبن، وأصبحت هاته الكلمات متداولة بكثرة عند الجزائريين حتّى في زمننا هذا كأنّها عُرِيت.

ومما يزيد الجلسة الأولى رونقا وجمالا، ردّ الجنان بكلمات أضفت جمالية على الحديث، من ذلك كلمة داكور ومعناها حسنا أو موافق.

ولما كان حال الناس بسيطا وجب أن يكون أسلوب التّلقين متماشيا مع عُرف الشّعب الجزائري وعوائده، فالشّعراء والكتّاب هم أكثر استقطابا للسامع، وأوفقُ إبلاغا للصّوت من المقامع، ولهذا نجد أَنَّ العاميّة قد تخلّلت شعر الشيخ البشير الإبراهيمي وكذلك مصطلحات من اللّغة الفرنسية، من ذلك ما ذُكر في الجلسة الثّانية في الأبيات التّالية:

فَإِنْ عَرَضْتَ صُورَةَ فَقُلْتُ وَي وَقُلْتُمَا مِثْلِي فَرَأَيْ مُسْتَوِي

وَإِنْ أَبَاهَا صَاحِبِي فَقَالَ نُو فَبَيَّنَّا فِيهَا خِلَافَ مُعَلَّن¹⁰

فقد تُرجمت كلمتي وَي و نو من اللّغة الفرنسية ونعني بهما نعم ولا،

ويكأن البشير الإبراهيمي يطلعنا من خلال هذه الأبيات على نوعية المتلقّي ومستواه الفكري واللّغوي، ورغبته وميوله، إذ من البديهي لا يمكن لأيّ شاعرٍ أو كاتبٍ في أيّ زمان كان، أي ينظّم لأمتة ما لا تفقهه.

وفي المشهد الثالث يدخل تلميذ صغير بيده طُبْسي فطائر باردة¹¹

الجلالي: بورك الخيشوم حين نفّها

نَقَّهَا أَيِ اسْتَنْشَقَهَا وَكَانَ عَنِ الشَّمَةِ

فَأَجَابَهُ الْجَبَّانُ: صَمَّطْتُهَا عَنِّي بِذِكْرِ الْأَكْلِ إِذْ لَيْسَ شَكْلُ الْأَكْلِينَ أَكْلِي

فكلمة صمَّطَها يعني أَثْقَلْتُ عني

ومن الانزياحات الغريبة في المصطلحات إلى ما يُستهلك في العامية غير البعيدة عن فهمه من بني عصره ، كلمة **مَرَوَكِي** الذي يعني المغربي نسبة إلى دولة المغرب والذي يعكس التنوع الثقافي للبلاد أو يعدّ الاسم التجاري للمغرب، وذلك في قوله:

مُعْتَكِفٌ فِي سَيِّدِي الْمَبْرُوكِ مِثْلَ اغْتِكَافِ السَّاحِرِ الْمَرُوكِ¹²

ووظّف البشير الإبراهيمي هذا البيت الشعري بعد انتهاء الجلسة الثانية، حين قام الرئيس السعيد بن حافظ باستدعاء السيد أحمد بوشمال، فبعد أن قام الرئيس بمدح بوشمال أنّه كان خير الناس وفاء وخصالا استدرّك بعدها أنّه أصبح في أيام الإملاق ملازما ومقيما في سيدي المبروك يبحث فقط عما يفيد شأنه شأن السّاحر. ونحسب أنّ الشيخ اختار منطقة سيدي المبروك الموجودة بمدينة الأغواط دون غيرها كون هذا المكان لم يفلح المحتلّ الفرنسي من تغيير طابع هذه المدينة من جهة، ومن جهة أخرى فقد عُرفت منطقة سيدي المبروك بخيراتها وكرم أهلها في ذلك الزّمان.

ويواصل الشيخ التمرّد على اللغة باستعمال كلمات فرنسية ذاع صيتها بالعامية، بل وأصبحت تتداول على ألسنة الجزائريين، من ذلك ذِكْرُهُ كَلِمَتَيِ الْبُونِ وَالْكَرِيزِ في قوله:

نَظْرَةٌ فِي وَجْهِكَ الْعَزِيزِ تَرْفَعُ هَمَّ الْبُونِ وَالْكَرِيزِ

يوجّه مدير المدرسة السعيد بن حافظ هذا المدح إلى الرّجل الرّابع الذي أدرجه الإبراهيمي في أرجوزته وهو أحمد بوشمال المذكور سالفاً، هذا الرجل الذي دعاه المدير عساه أن يُعطيهما حلّاً للمشكلة المتمثّلة فيمن يشتري الطابع البريدي ولكن لا يفلح في إيجاد الحلّ، والذي يلفت انتباهنا في هذا البيت الشعري كَلِمَتَيِ الْبُونِ وَالْكَرِيزِ ، فكلمة البون هي كلمة فرنسية يُقصد بها هنا البطاقة التي يحدّد فيها نصيب كلّ عائلة من المواد الضرورية، وقد كتبها الإبراهيمي كما تتطّق بالفرنسية حتّى يبرز لنا نوعية المتلقّي في زمانه ومستواه الفكري واللغوي، فطبعاً لا يمكن لأيّ كان أن يكتب لأمتّه ما لا تفقهه، والأمر نفسه بالنسبة للكلمة الفرنسية الكريز التي نعني بها الأزمة والضيق.

ولعلّ وقفة أخيرة مع الأبيات التّالية، التي تُبدي استياء البشير الإبراهيمي من عدّة جوانب للحياة الاجتماعية في الجزائر، تكفيها مؤونة البحث لنبرهن مدى عدوله باللفظ الفصيح إلى العامية واستخدامه لبعض الكلمات الفرنسية، يقول الشيخ في أرجوزته على لسان المعلّم الجَلّالي:

فَرَبَّمَا طَالَتْ إِلَى الزَّوَالِ وَأَنْتَ تَدْرِي أَنَّي زَوَالِي¹³

خَلْنَا نَكْوِي الْحَشَا بِقَارُو وَنَسْتَمِعُ لِقَارِي الْفَقَارُو¹⁴

نرى أنّ البيتين الشعريّين يتخلّلهما مصطلحات عامية وفرنسية بعيدة عن الرّكاكة والابتذال بما يناسب المتلقّي، فمثلا كلمة زوالي ليُقصدُ بها الفقير، أمّا كلمة قارو فمعناها السّجارة، وأمّا الفقارو فهو اسم لجريدة فرنسية، ولعلّ سبب هذا التّوظيف كون حال الناس بسيطا فوجِبَ أن يكون أسلوب التّلقين متماشيا مع عُرف الأُمّة وعوائدها، ثمّ إنّ البشير الإبراهيمي لم يشأ أن يُوظّف في هذه المسرحية ما لا يفقهه السّامع.

5. خاتمة:

وختام هذا المبحث، هو أنّ البشير الإبراهيمي قد وُقِّعَ في رواية الثلاثة إلى تصوير بعض المظاهر الاجتماعية في الجزائر قبل الثّورة وأثنائها من اضطهادٍ وحرمانٍ وألمٍ وحزنٍ وفاقةٍ، وبالأخصّ فئة المُعلّمين الذين يحرصون على تعليم الناس ورقّي الأُمّة.

وينبغي أن نُنَوّه على أنّ الإبراهيمي ارتكن في هذه الأرجوزة إلى ما يتلاءم مع القارئ في زمانه من مصطلحات أجنبية وعاميةٍ، واعلم أنّ هذه الجسارة اللغوية أُرْدِفت سحرا يجلب القراء والنّظرَاء.

التهميش:

- 1- ينظر عبد الرحمن شبان، الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي واللغة العربية، مجلة الثقافة، العدد 87، وزارة الثقافة والسياحة 1985، ص 73.
- 2- دليل السوسيو لسانيات، فلوريان كولماس، تر خالد الأشهب، مركز دراسات الوحدة العربية ط1 2009، ص115.
- 3- مجلة دراسات جزائرية، تجليات الهوية الوطنية في رواية الثلاثة للإبراهيمي، لعبد الملك مرتاض، عدد مزدوج 12/11-2013، منشورات مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران، ص 36.
- 4- ينظر وقفة مع البشير الإبراهيمي ومسرحية "الرواية الثلاثة"، لعبد الله حمادي، مجلة الثقافة، 1985، ص 344.
- 5- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 2008، ص 16.
- 6- آثار محمد البشير الإبراهيمي، مع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى 1997، المرجع نفسه، ص 65/2.
- 7- مجلة دراسات جزائرية، المرجع السابق، ص 37.
- 8- آثار محمد البشير الإبراهيمي، مع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 67/2.
- 9- المرجع نفسه، ص 72/2.
- 10- المرجع نفسه، ص 76/2.
- 11- المرجع نفسه، ص 83/2.
- 12- المرجع نفسه، ص 92/2.
- 13- المرجع نفسه، ص 94/2.
- 14- المرجع نفسه، ص 99/2.